قالت العرب

وكان هناك شيوخٌ منسيّونَ وألويةٌ وبيارقُ، ومواريثُ، ونخلٌ، وبقايا آلام وابنُ العمِّ العابرُ في خطوات متباطئة، تحسبُ أن أصابعه تَتَحسّسُ ظهْرَ الماءِ، وكان هناك العالَمُ رخواً يُشبهُ صفَّ قبورِ

المشهد

العدد 349 – السنة الرابعة عشرة-الأربعاء 1 أبريل 2026 م – 13 شوال 1447 ه

حرب سقوط الحسابات.. خطيئة ترامب ونتانياهو الكبرى

فى كل حرب هناك نوع من «المجازفة». وهى تلك الرؤية التقريبية وليس القطعية أو اليقينية، للمسارات التى يمكن أن ينجرف اليها سير المعارك، لأن لا أحد يعرف ما قد يطرأ من مستجدات أثناء سير العمليات. لذلك كثيرا ما يضع المخططون خططا بديلة متعددة، لاعادة التأقلم والتواؤم مع التطورات الفعلية التى قد تظهر، على غير انتظار، أثناء سير المعارك . بيد أن الحرب الراهنة جاءت منذ اللحظة الأولى موصومة، حرفيا، بما يمكن تسميته باسم «حرب سقوط الحسابات». فعندما بادر العدو الصهيونى الأمريكى بشن الحرب على ايران، كان يظن أن الأمر لن يستغرق عدة أيام على الأكثر، معتمدين فى هذا الظن على الطريقة المعتادة لديهما معا، ألا وهى طريقة «الصدمة والرعب». وهى طريقة تقوم على فكرة مؤداها: مفاجأة العدو بأكبر قدر من النيران على نقاط مفصلية واستراتيجية فى بنيته العسكرية واللوجستية، فى أقصر وقت ممكن. ومن ثم يتحقق النصر السريع غير المكلف الذى يتمنيانه.

قصف طهران في أوائل أيام الحرب

طاولة مفاوضات إسلام أباد

تماسك الداخل الإيراني

إيران من ضحية سهلة ومرشحة للفناء إلى كابوس عسكرى حقيقى شديد البأس أصاب كرامة وهيبة الأمريكان والإسرائيليين

«الثقافة الكربلائية» والقتال من أجل البقاء يعززان الصمود الإيرانى والقوى التى يهمها هزيمة الغطرسة الأمريكية ساعدت

ولقد تمت تجربة تلك الطريقة بنجاح تام فى حرب يونيو ١٩٦٧ عندما ضربت القوات الإسرائيلية معظم طائرات سلاح الجو المصرى والسورى وهى على الأرض، ومن ثم تم حسم المعركة قبل أن تبدأ فعليا. وكذلك الأمر فى جرينادا عام ١٩٨٣، وبنما ١٩٨٩.. الخ. وأخيرا فى فنزويلا، فى الثالث من يناير ٢٠٢٦. عندما عمدت القوات الأمريكية الى اعماء وتعطيل الرادارات والدفاعات الجوية الجوية الفنزويلية ومن ثم تقدمت قوات «دلتا فورس» الى القصر الرئاسى لتنفذ عملية إلقاء القبض على الرئيس نيقولاس مادورو، بسهولة تامة وبدون ثمن مادى أو بشرى يذكر. وهى الواقعة التى تعد الأكثر اثارة ودلالة رمزية فى زمننا الراهن.

فلأول مرة يتم القبض على رئيس الدولة المعادية بدون حرب شاملة على الدولة ككل. وان كان ذلك قد تم، من قبل، عند القبض على الرئيس هدسون أوستن رئيس جرينادا عام ١٩٨٣، والرئيس مانويل نورييجا فى بنما يناير عام ١٩٩٠، فإن الفرق كبير بين جرينادا وبنما، من ناحية، وفنزويلا، من ناحية أخرى، ولايمكن وضعها معا فى كفة واحدة، من حيث طبيعة كل من مادورو والزعيمين الآخرين وتوجهات كل منهم، ولا موازين القوى العسكرية والبشرية وتطورها، فى بلديهما. حيث تتميز فنزويلا عن البلدين الآخرين فى كل شيء. ولكنها على الرغم من ذلك سقط رئيسها بالطريقة ذاتها التى سقط بها الرئيسان السابقان عليه.

ولعل النجاح الباهر الذى حقق الهجوم على فنزويلا (فضلا عن سابقاتها) هو الذى زين لترامب ونتانياهو محاولة تكرار التجربة ذاتها، فى ايران. خاصة مع وجود تماثل نسبى بين حالى كل من فنزويلا وايران: فكلاهما محاصر منذ فترة طويلة، وكلاهما يعانى من توترات شعبية داخلية. بل إن ايران تميزت بأنها عانت من حصار شامل فرضته عليها أمريكا والغرب، تم بموجبه إخضاعها لعقوبات اقتصادية وسياسية وعسكرية كاملة ومتواصلة، منذ قيام الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩، حتى وقتنا الحالي. كما فرضت عليها حرب مع العراق، امتدت إلى ثمانى سنوات، حيث بدأت فى ٢٢ سبتمبر ١٩٨٠، لتنتهى فى أغسطس عام ١٩٨٨. ثم فرضت عليها حرب الاثنى عشر يوما فى يونيو من العام الماضي. ثم جرى التلاعب بالداخل الإيرانى لتخرج ضده عدة انتفاضات شعبية كبرى، كان آخرها ما جرى فى منعطف عامى ٢٠٢٥ و٢٠٢٦، أى قبل عدة أشهر من اندلاع الحرب الحالية.

وبحسب كل ما سبق فان كل الحسابات الظاهرية كانت تقول أن ايران قد أضحت جاهزة تماما، لتلقى الضربة الأخيرة التى ستنهى كل شيء، ومن ثم تحقق أمريكا النصر الاستراتيجى السهل الذى اعتادت عليه، وبدون خسائر تذكر. وكان لدى الأمريكان يقين قوى بأن الإطاحة برأس النظام كفيلة باعطاء أمل جديد لمن قاموا بالانتفاضة الأخيرة، فيقومون بالاجهاز على ما تبقى من قوة النظام، فينهار وتتفكك الدولة. ومن ثم يتحقق ما أراده الطرفان المهاجمان، من تنصيب أحد عملائهم حاكما لما تبقى من ايران اذا تبقى منها شيء، بعد تقسيمها بحسب المكونات العرقية المكونة للدولة. سواء أكان هذا العميل متمثلا فى ابن الشاه السابق أو أى صنيعة أخرى متاحة.

خارج التوقعات

ولكن حدث ما لم يكن متوقعا. فعملية اغتيال رأس النظام المتمثل فى المرشد الأعلى للثورة الإسلامية (على خامنئي) مع الصف الأول من القيادة، لم يفض الى انهيار النظام، بل سرعان ما تماسك النظام وأفرز قادة جددا، ربما كانوا أكثر عنفا ورغبة فى الانتقام من القيادات السابقة. وهكذا.. فكلما اغتالوا شخصية قيادية حلت محلها شخصية أخرى أكثر ضراوة وعنفا وإصرارا على القتال.

كما أن الشعب الإيرانى لم يثر على النظام الذى قطع رأسه (بحسب ما كان ينتظره الأمريكان والإسرائيليون) بل انه ازداد التحاما وتمسكا بنظام الحكم، بل إن المعارضين السابقين أظهروا ولاءهم للوطن وتناسوا خلافاتهم مع النظام وانضموا للقتال دفاعا عن بلادهم.

وهنا حدث ما لم يكن فى حسبان الدولتين المهاجمتين. حيث تحولت ايران من ضحية سهلة ومرشحة للفناء، الى كابوس عسكرى حقيقى شديد البأس أصاب كرامة وهيبة الأمريكان والإسرائيليين، وحلفائهما فى المنطقة، فى مقتل. على النحو الذى يشهده العالم أجمع الآن. وهو الأمر الذى أوصل الدولتين المهاجمتين الى مستوى من التوجع بحيث أصبحتا تستجديان «إيقاف القتال». وبدلا من الإطاحة بالنظام وتدمير المشروع النووى والاجهاز على المشروع الصاروخي، أخذت مطالبهما تتراجع الى مستوى مجرد فتح مضيق هرمز الذى كان مفتوحا من قبل نشوب الحرب.

ولكن ما الذى جعل هذه الحرب تتحول الى هذا النوع الفاجع من حروب الحسابات الخاسرة؟؟

●●●

أعتقد أن الأمر يعود الى مجموعة من الخطايا الاستراتيجية ارتكبتها قيادة العدو:

– خطيئة الاستهانة بالقوة الحضارية للخصم، وقدراته الثقافية والروحية الكامنة.

– عدم الوعى بطبيعة النظام السياسى والجهل بقدرته على إعادة انتاج نفسه وسلاحه وتعويض خسائره.

– عدم الوعى بالطبيعة الأيديولوجية والروحية لجنود وشعب الخصم.

– عدم حساب طبيعة القوى التى يهمها ويمكنها تقديم الدعم والمساعدة للخصم، كما ونوعا أثناء المعركة.

وسوف أتناول فيما يلى كل نقطة من هذه النقاط بالتفصيل فيما يلي:

أولا: بالنسبة للاستهانة بقوة الخصم، فقد تعامل العدو الأمريكى الصهيونى مع ايران على ضوء بيانات صورية وشكلية تماما، تمثلت فى المعلومات الكمية المجردة التى تقدمها أجهزة المخابرات التابعة لكل من القوتين المهاجمتين. وهى بيانات تحسب الظاهر والمعلن من كميات السلاح والغذاء والمستوى المعيشى وطبيعة قوى المعارضة والموالاة .. الخ. ولم تحسب هذه الأجهزة العمق الحضارى والتاريخى للشعب، وما يشتمل عليه من مفاهيم فارقة مثل: كرامة الأمة، ورمزية القيادة، وتجاهل قيمة المشاعر الدينية والوطنية. فالشعب الإيرانى شعب عريق ذو حضارة قديمة بنت منجزات حضارية كبرى وامبراطوريات عظمى، هزمت حضارة الميديين وورثتها منذ عام ٥٥٠ قبل الميلاد، عندما تأسست الامبراطورية الإخمينية على يد الملك قورش الكبير، بوصفها قوة عالمية عظمى، فى ذلك الزمان. فناطحت اليونانيين، واستولت على منطقة غرب ووسط آسيا، وأثرت حضارتها بقوة على كل شعوبها، ففرضت عليهم لغتها وأديانها وثقافتها.

وهذا التاريخ الحضارى هو ما يفسر أن الفرس يتمتعون بهذه القوة العلمية والفكرية الهائلة التى بقيت متوهجة حتى بعد الغزو العربى الإسلامى لبلادهم. وكان تأثيرهم فى الحضارة الاسلامية هو الأبرز والأكثر وضوحا، من بين الشعوب التى ضمها العرب المسلمون لامبراطوريتهم. فكان منهم الشعراء الكبار والفلاسفة والحكماء واللغويون.. الخ. بل لقد بلغ من تأثيرهم أن واضع قواعد النحو العربى هو العالم الفارسى سيبويه، وأن جامعى الحديث النبوى هم البخارى ومسلم والترمذي.. الخ، من الفرس.

والايرانيون يعدون من أكثر الشعوب التى ضمها العرب اعتزازا بقوميتهم وتاريخهم. ولعل ذلك ما جعلهم يناصبون بنى أمية الذين تعصبوا للعرق العربى العداء. وكان لهم الدور الأكبر فى القضاء على حكم السلالة الأموية، لصالح تنصيب بنى العباس، بدلا منهم، حيث برز الدور المحورى للقائد الفارسى أبو مسلم الخراساني. وأعتقد أن انتماء الفرس الى المذهب الشيعى ابان عصر الدولة الصفوية فى بداية القرن السادس عشر الميلادى (١٥٠١) يتعدى الجوانب الدينية والرمزية التى مثلتها شخصية الامام على بن أبى طالب وشخصية الحسين بن علي، ليعبر على نحو غير معلن عن مشاعر قومية ونزعة استقلالية مبكرة، فى خضم المواجهة مع العثمانيين السنة. فأضحى المذهب الشيعى بمثابة أيديولوجية نضالية قومية تجمعت حولها مكونات الأمة، فى زمن غلبت عليه الأيديولوجيا الدينية بشكل عام، سواء فى الشرق أو الغرب.

قدرة النظام على إعادة إنتاج نفسه

ثانيا: أما فيما يتعلق بعدم الوعى بطبيعة النظام السياسى وقدرته على إعادة انتاج نفسه وإنتاج سلاحه وتعويض خسائره، فإن الأمريكان والإسرائيليين لم يضعوا فى حسابهم الطبيعة الاستثنائية التى يتميز بها شخص المرشد العام فى ايران «الشيعية». فهو ليس مجرد رئيس مثل مادورو أو نورييجا ممن سبق ذكرهم. بل إنه شخصية تجتمع فيها السلطتان الروحية والزمنية، فى وقت واحد. فسلطته تشبه الى حد بعيد سلطة (بابا) الفاتيكان، داخل دولة الفاتيكان وخارجها. فهو فى داخل ايران هو الإمام الذى يخلف الإمام الثانى عشر (المهدى الغائب) فى قيادة الدولة الشيعية. وهو خارجها، بالنسبة لجموع الشيعة غير الإيرانيين، إنسان (مقدس) ينتسب إلى البيت النبوي، وبالتالي، يحمل لقب (سيد) وهو لقب لا يحمله إلا من ينتسبون إلى بيت النبوة. وبالتالى فهو رمز دينى ومرجع روحى إلى جانب كونه قائدا سياسيا داخل الدولة الايرانية. ومن هنا فهو لا يمكن قياسه على نموذج الزعيم أو الرئيس أو الملك، على النحو الذى تعرفه أنظمة الحكم الحديثة.

ولذلك جاءت عملية اغتياله بمثابة إهانة بالغة وطعنة غائرة ضربت صميم البنية العقيدية والدينية والوطنية لجموع المؤمنين به، سواء فى داخل إيران أو خارجها. ولذلك جاءت عملية اغتياله لتفجر غضبا هائلا فى نفوس الإيرانيين والشيعة فى كل أرجاء العالم. حيث أعادت الى الأذهان كل «مقاتل الطالبيين» أو عمليات الاغتيال المتتالية التى بدأت بعلى بن أبى طالب، والحسن بن علي، والحسين بن على من فاطمة الزهراء بنت النبى محمد (ص)، وأبنائهما وأحفادهما ، والتنكيل التاريخى بآل بيتهما حتى على زين العابدين، حفيد الحسين، عام ٩٥ هجرية – ٧١٤ ميلادية. مرورا بفاجعة كربلاء وغيبة الإمام المهدي.

ولعل هذه السردية هى ما جعلت من عملية اغتيال المرشد الأعلى السيد على الخامنئي، بمثابة استعادة تاريخية كاملة لما أسميه بـ«الثقافة الكربلائية» التى تقوم، من ناحية على التفجع الحزن، ومن ناحية ثانية، على استرخاص الموت والرغبة الحارة فى الانتقام.

من ناحية أخرى، فلقد استثمر الإيرانيون ما يتمتعون به من زخم حضارى وعلمى فى التغلب على الحصار المطبق الذى تم فرضه عليهم، واستثمروا فى تطوير وتنمية عقول أبنائهم. كما حول الإيرانيون حرب الأعوام الثمانية وسنوات الحصار الطويل الى فرصة لتطوير قدراتهم على إنتاج كل شيء، بالمعنى الحرفى للكلمة (من الابرة الى الصاروخ). سواء ما يتعلق بالسلع الزراعية والصناعات الغذائية والاستهلاكية، أو التعدين والصناعات التحويلية والاستراتيجية، بدون الاعتماد على الخارج فى أى شيء.

ولكى يقوموا بذلك كان عليهم الاهتمام بالتعليم، وبخاصة ما يتعلق منه بالعلوم الطبيعية والرياضية والهندسية. فإيران تقوم سنويا بتخريج الآلاف من المهندسين الذين يتجاوز عددهم ما تقوم عدة دول أوربية بتخريجه مجتمعة، بحسب الإحصائيات الدولية المحايدة. كما استفادت إيران من علاقاتها بحلفائها من بلدان الشرق، مثل كوريا والصين وروسيا. وهو ما مكنها من توطين قاعدة علمية وتكنولوجية بالغة التقدم. وهى تلك القاعدة التى نلمس آثارها اليوم فى الطائرات المسيرة والصواريخ المتطورة بعيدة المدى. ولعل الدليل الأوضح على التميز الإيرانى فى هندسة الطيران والفضاء هو لجوء دولة عظمى ورائدة فى هذا المجال مثل روسيا أن تطلب عون الإيرانيين فيقومون ببناء مصنع للطائرات المسيرة من نوع (شاهد) فى الأراضى الروسية.

ولذلك نلاحظ أن الإيرانيين ليست لديهم مشكلة فى الامداد والتموين لقواتهم وتعويض ما يتم إنفاقه من الذخائر التى يتم القاؤها بأعداد هائلة على مواقع القوى المعادية. خاصة إذا عرفنا أن هذه الذخائر من صواريخ ومسيرات تعد زهيدة الثمن للغاية نظرا لتصنيعها من مكونات محلية وبأيدى محلية. بينما يصرح الطرف المقابل من نفاد ذخائره الغالية الثمن والتى تستغرق وقتا طويلا لتعويض ما يتم استهلاكه منها.

التكوين الأيدولوجي

ثالثا: خطيئة عدم الوعى بطبيعة التكوين الأيديولوجى والنفسى لجنود وشعب الخصم.

لقد تصور ترامب ونتانياهو أن ما يمكن أن يصدر من استسلام قيادة أو شعب معين أمام مفهوم التفوق الأمريكى الكاسح، يمكن أن ينسحب على أى قيادة أو شعب آخر، بدون قراءة الفوارق الثقافية والاختلافات فى التجربة التاريخية لكل شعب على حدة، وبخاصة فيما يتعلق بالشعب الإيراني. وتلك رؤية استشراقية، تتبع من تعميمات تنميطية، لا تهتم بالنظر فى أى من هذه الفوارق، التى تتغاير بتغاير الخبرات والتجارب التاريخية للشعوب.

وفيما يتعلق بايران، على وجه التحديد، فان هذا البلد يمتلك، بكل تأكيد، نوعا من الخصوصية فيما يتعلق باستجابته لعوامل الردع والاخضاع، على مر تاريخه. حيث ترتكز قوته على عنصرين رئيسيين يجعلانه يقاتل حتى الموت. الأول: هو المتمثل فى الثقافة الكربلائية. والثاني: هو ذهنية من يقاتل وظهره للحائط.

«الثقافة الكربلائية» :

وتعد، تلك الثقافة، قلب وجوهر البنية الأيديولوجية للتدين الشيعي، بعامة، وبالتالي، ينسحب الأمر على إيران. من حيث انتماء السلطة وغالبية الشعب الى هذا المذهب.

ويتمحور المذهب الشيعي، كما هو معلوم، حول فكرة التشيع (أى التأييد والانتماء) للإمام على، كرم الله وجهه، وآل بيته. ومناصرة أحقيتهم فى الامامة (الحكم والسلطة)، فى مواجهة مغتصبيها منه ومن أبنائه، سواء أكان هؤلاء المغتصبون للسلطة من بنى أمية أو ممن تلاهم من العباسيين وغيرهم. ولقد ارتبطت هذه الثقافة بـ«موقعة كربلاء» التى حدثت يوم الجمعة، العاشر من محرم سنة ٦١ هجرية، وهو الموافق ١٢ أكتوبر سنة ٦٨٠ ميلادية. وكربلاء هى المكان الذى وصل اليه الإمام الحسين (ع) وأهل بيته، ليلتحق بمناصريه من أهل الكوفة، (وقد كانت عاصمة الخلافة إبان حكم الإمام على قبل قتله وانتقال العاصمة الى دمشق فى عهد معاوية). بعد أن قام أهل الكوفة بمراسلته ودعوته للقدوم اليهم، واعدين إياه بمناصرته ومبايعته خليفة عليهم، بدلا من يزيد بن معاوية، الذى انتزع له أبوه (معاوية بن أبى سفيان) البيعة بحد السيف، فى ذلك الوقت. وعندما قدم موكب الحسين لاقاه جيش عبيد الله بن زياد والى الكوفة الموالى ليزيد، بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص. حيث نكص أهل الكوفة عن مناصرة الحسين خوفا ورعبا، ومن ثم، نكل جيش يزيد بالحسين وآل بيته فى مذبحة وحشية كبرى، قتل فيها الحسين وجزء كبير من أبنائه وتم سبى نساء آل البيت النبوي. ولقد بقيت تلك المذبحة تمثل جرحا غائرا فى الوعى الدينى الإسلامي، بمختلف مذاهبه، حتى اليوم.

ومن هنا، تكونت تلك «الثقافة الكربلائية» على عاطفتي: «الندم» و«الحزن»:

أما الندم، فهو ذلك المتمثل فى جلد الذات (معنويا وماديا، معا) على عدم نصرة الحسين، فى محاولة للتطهر من الذنب ودفع ثمنه ألما. وأما الحزن، فهو ذلك الاشفاق، المتمثل فى سكب الدموع ولبس الأسود، حدادا على ما حاق بالحسين وآل بيته، من بشاعات، بينما كان يليق بهم التكريم.

ولذلك تقام فى ذكرى هذاالحدث الجلل، من كل عام، مواكب الندم والحزن الكربلائية التى تجوب شوارع ومدن الشيعة.

ولقد ارتكزت عاطفتا «الندم» و«الحزن»، بدورهما، على أسس ثلاثة:

الأول: أخلاقي، يتمثل فى التمسك بالمبدأ، والوقوف بجانب الحق والمطالبة بالعدل، مهما كانت التبعات.

والثاني: عقيدي، يتمثل، يتمثل فى استرخاص الموت، وتمجيده، واعتباره نوعا من التكفير والتكريم، فى آن.

والثالث: مسلكي، يتمثل فى التخلى عن جزء من الثروة ونعم الحياة، فى مقابل الميل الى التقشف والقسوة على النفس.

ولذلك أضحت الثقافة الكربلائية، بجوهرها، ثقافة استشهادية، تتعدى عدم المبالاة بالموت، الى السعى طلبا له. فأصبحت بمثابة الروح الخفية المبثوثة فى وجدان هذه الملايين، تحركهم وتوجه حركتهم. وتحول نمط حياتهم الى نوع من «الجهاد» المقدس.

القتال من أجل البقاء:

لقد أضحت ايران، منذ انتصار الثورة الخومينية على يقين تام بأنها تقع فى موضع الاستهداف، من قبل قوى الغرب الامبريالى وقوى الصهيونية، فى الآن نفسه. ولقد تبدى ذلك بجلاء فى الحصار الشامل، الذى أطبق على الجمهورية الإسلامية منذ انتصار ثورتها عام ١٩٧٩. وما تلاه من تشجيع العراق وتمويله، فى عهد صدام حسين، ليشن الحرب على إيران، التى استمرت لثمانى سنوات. ومن بعد ذلك فى حرب الاثنى عشر يوما فى يونيو الماضي، وأخيرا تلك الحرب الحالية، فضلا عما تخلل ذلك التاريخ من الاستفزازات التى لا تتوقف، والاغتيالات المتوالية لقادة عسكريين، وعلماء، وسياسيين. حتى بلغت تلك الاغتيالات حد اغتيال رئيس الدولة إبراهيم رئيسى فى ١٩ مايو عام ٢٠٢٤. وكانت ذروتها متمثلة فى اغتيال المرشد العام لإيران، على خامنئي، ومعه عدد كبير من كبار القادة العسكريين فى الجيش والحرس الثوري.

وفى أى من كل تلك الحروب والاغتيالات، لم تكن إيران هى المبادرة، بل كانت هى التى يقع عليها العدوان. على الرغم من إبدائها كل أشكال المرونة السياسية والاستعداد للتفاهم والتفاوض. لذلك وصل الإيرانيون إلى يقين مؤداه أن البديل الوحيد أمامهم هو الصمود والمواجهة، وإلا فان مصيرهم هو الفناء والقضاء المبرم على وجودهم. ليس فقط وجودهم السياسي، كنظام للحكم، بل وجود وكيان الدولة الإيرانية، بحد ذاته.

لذلك توصل الخطاب السياسى الإيرانى إلى صياغة مؤداها أن المعادلة التى تحكم علاقته بالغرب والكيان الصهيونى إنما هى «معادلة صفرية»، لا مكان فيها لأنصاف الحلول، فإما النصر والصمود مهما كانت التضحيات، وإما الفناء. وأضحت الذهنية الحاكمة عند الإيرانيين منحصرة فى وضعية «القتال من أجل البقاء».

القوى التى يهمها هزيمة أمريكا وإسرائيل

رابعا: عدم حساب طبيعة القوى التى يهمها هزيمة العدوان، ويمكنها تقديم الدعم والمساعدة لإيران

لا يمكن التكهن بمقدار وعى صانع القرار الأمريكى والصهيونى من أن هناك قوى عالمية تتمنى تورطهما فى صراع دموى وطويل مع إيران. وربما ضعف ردود الأفعال على ما قام به ترامب نجاه فنزويلا هو ما جعله يقلل من توقعه لحجم الدعم الذى يمكن أن يقدمه أصدقاؤها. ولكن واقع الحال أن تلك الحرب جاءت على هوى كثير من القوى العالمية، على رأسها الصين، وروسيا، وكوريا الشمالية، وربما بعض دول أوروبا من الأعضاء فى حلف الناتو نفسه. وكل هذه القوى يهمها إنهاك وإضعاف الولايات المتحدة، وإجبارها على التخلى عن أطماعها التى لا تقف عند حد، خاصة أن رئيسها يقوم بالإفصاح يوميا عن رغبته فى السيطرة المطلقة على كل بلدان العالم والاستيلاء الكامل على ثرواتها. فضلا عن عجرفة هذا الرئيس وفريقه فى التعامل مع زعماء العالم، والإعراب الدائم عن أطماعهم فى السيطرة بالقوة العارية على العالم. على نحو يجافى كل الأعراف وقواعد البروتوكول والقوانين الدولية. فأعداء الولايات المتحدة صاروا يمثلون معظم سكان العالم، بالمعنى الحرفى للكلمة.

بيد أن الخصمين الأكثر أهمية يتمثلان فى كل من الصين وروسيا. وكلاهما يعلم أنه هو المستهدف الضمنى من الحرب على إيران. أما الصين فهى على وعى وثقة تامين من أن معظم النشاطات السياسية والعسكرية التى يقوم بها الأمريكان، انما يقصدون منها محاولة حصار الصين وخنق اقتصادها، بغية إيقاف نموها المطرد على نحو يرون فيه تهديدا لعرش الصدارة والهيمنة الأمريكية على العالم. سواء أكان ذلك متمثلا فيما حدث مع بنما من إجبارها على التخلص من الحصة الصينية فى قناة بنما، أو ما تم فى فنزويلا، من اختطاف الرئيس نيكولاس مادورو وزوجته، وما تبعه من هيمنة على النفط الفنزويلي. أو حصار كوبا والتهديد بابتلاعها. أو حتى ما جاء بالتصريح اللفظى المباشر عندما قال ترامب بأن «على أمريكا أن تحصل على جزيرة جرينلاند حتى لا تستولى عليها الصين أو روسيا». وانتهاء بالحرب على ايران، والتى تهدف إلى الهيمنة على سوق النفط العالمي، بما يجعلها قادرة على التحكم فى أسعاره، وبالتالى التحكم فى تدفقه إلى المصانع الصينية.

وكذلك السعى الأمريكى إلى إحكام السيطرة على الممرات الملاحية التجارية، وبخاصة مضيق هرمز فى تلك الحالة، بما يمكنها من السيطرة على حركة التجارة الصينية وعرقلة سبل تدفقها على الصعيد العالمي. إلى جانب الوضع فى الاعتبار أن الولايات المتحدة تعد الداعم الأكبر لتايوان والمانع الرئيسى لطموح الصين فى ضمها إلى الوطن الصينى الأم.

ولذلك جاءت هذه الحرب على إيران لتصبح فرصة كبيرة بالنسبة للصينيين لكى يلجموا هذه العدوانية الأمريكية ويهزموا عنفوانها العسكرى والسياسى على الصعيد العالمي، عن طريق إغداق الصين بالمساعدات التسليحية لإيران، كما وكيفا، وعلى مستوى المعلومات الاستخباراتية.

أما بالنسبة لروسيا فان ثأرها مع الولايات المتحدة قديم ومتأصل منذ سنوات الحرب الباردة، ودور الغرب فى تفكيك الاتحاد السوفيتي، الذى اعتبره الرئيس الروسى فلاديمير بوتين «أكبر كوارث القرن العشرين»، فى تصريح مشهور له. كما أن أمريكا والغرب هما اللذان حرضا أوكرانيا على استقبال الصواريخ الدفاعية لحلف شمال الأطلنطى «ناتو» إلى الحدود الروسية. وقاما بالتلويح بضمها إلى هذا الحلف. بما يهدد، فى الصميم، الأمن القومى الروسي. كما أن الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة، هو الذى يعمل على قلقلة الأوضاع فى دول آسيا الوسطى التى تعد الخاصرة الرخوة للاتحاد الروسى ومجاله الحيوي، فيما يتعلق باستراتيجيته الدفاعية. ولقد رأينا ذلك فى الأحداث التى جرت فى كل من: جورجيا، والشيشان، وأذربيجان، وأرمينيا، وكازاخستان. وكلها شهدت تحركات غربية تهدد النفوذ الروسى هناك.

وبدرجة أقل، يمكن إضافة كوريا الشمالية إلى المعسكر الروسى الصيني، حيث تتخذ كوريا الشمالية من أمريكا عدوها الأكبر والمهدد الأول لبقائها.

لكل ذلك تلقف هؤلاء الخصوم مبادرة أمريكا والكيان الصهيونى بالهجوم على ايران ليقدموا مختلف ألوان الدعم لتقوية صمودها وإبعادها عن شبح الهزيمة والاستسلام. ولقد تبدى أثر هذا الدعم بقوة ملموسة فى هذه الحرب، قياسا على ما جرى فى حرب العام الماضي، من خلال ما لاحظه المراقبون من دقة تصويب الصواريخ الإيرانية، ومقدار فاعليتها التدميرية، وتنوع بنك أهدافها.. الخ. وهو ما جعل إيران أكثر إيلاما لأعدائها عن ذى قبل.

وفى النهاية يبقى سؤال مهم أراه يلوح فى ذهن كل قارئ لهذا التحليل: ألا وهو ما سر هذا الإخفاق فى حسابات العدو الصهيو أمريكي؟؟

والإجابة، كما أراها، قد تكمن فى تعجل قوى العدوان بالهجوم على إيران لاجهاض ما يتصورونه وصولا وشيكا لصناعة سلاح نووي، يريانه مهددا لكل مشاريعهما السابق الإشارة اليها. وقد يكون السبب متمثلا فى الخضوع إلى نبوءات توراتية دينية مرتبطة بالديانة اليهودية والمسيحية الصهيونية التى تعمل من أجل القضاء على إيران وبناء الهيكل، تمهيدا لظهور السيد المسيح.. الخ. وقد تكمن الإجابة فى طبيعة الشخصية النرجسية للرئيس ترامب ورغبته فى استكمال أمجاده الوقحة بتحقيق انتصارات إضافية يباهى بها الجمهور الأمريكي، كما وعده بجعل أمريكا عظيمة مجددا. وقد يكون السبب ناتجا عن سيطرة معينة للوبى اليهودى على شخص ترامب.. الخ.

لكن الحديث عن ذلك يتطلب مقالا آخر.

بقلم: د. صلاح السروي

المشهد

العدد 349 – السنة الرابعة عشرة-الأربعاء 1 أبريل 2026 م – 13 شوال 1447 ه

قالت العرب

وكانَ أمامَ البيت خلاءٌ، لا يسكنهُ غير هواءِ الليل، وغيرُ غرائزنا، وأمامَ البيتِ مسلاتٌ بيضاءُ، وريحٌ مترهلةٌ تلبسُ أرديةً زرقاءَ، ورجلٌ حافٍ ممتلئٌ بحنينٍ صافٍ، وطيورٍ جائعةٍ، سوف يسيلُ، ويجلسُ

تفاصيل الاجتماع السرى بين ترامب ونتنياهو الذى مهد لضرب ايران

ترامب يمنح الضوء الأخضر لأفكار إسرائيلية بشأن سهولة اسقاط النظام الإيرانى قبل أن تدرسها أجهزته

اجتماع في البيت الأبيض

نتنياهو يعرض سيناريو الحرب (صورة بالذكاء الاصطناعي لمحاكاة ما جرى)

معلومة استخبارية عن اجتماع القيادة الإيرانية برئاسة المرشد عجلت قرار الحرب وكانت فرصة لا تفوّت

نائب الرئيس كان يعتقد أن حربًا لتغيير النظام فى إيران ستكون كارثة وحاول توجيه القرار نحو عمل محدود

رئيس هيئة الأركان لم يبلغ الرئيس ترامب بأن الحرب مع إيران فكرة سيئة للغاية رغم أنه يعتقد ذلك

وصلت سيارةٍ دفع رباعى سوداء تقلّ رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو إلى البيت الأبيض قبيل الساعة الحادية عشرة صباحًا فى الحادى عشر من فبراير، وكان المسؤول الإسرائيلي، الذى ظلّ يضغط لأشهر من أجل موافقة الولايات المتحدة على شنّ هجوم واسع على إيران، قد أدخل سريعًا إلى الداخل دون مراسم تُذكر وبعيدًا عن أنظار الصحفيين، استعدادًا لواحدة من أخطر اللحظات فى مسيرته الطويلة.

واجتمع المسؤولون الأمريكيون والإسرائيليون أولا فى غرفة مجلس الوزراء المجاورة للمكتب البيضاوي، ثم توجّه نتنياهو إلى الطابق السفلى للمشاركة فى الحدث الرئيسى وهو عرض شديد السرية بشأن إيران أمام الرئيس ترامب وفريقه فى غرفة العمليات بالبيت الأبيض، وهى غرفة نادرًا ما تُستخدم لعقد اجتماعات حضورية مع قادة أجانب.

جلس ترامب، ولكن ليس فى موقعه المعتاد على رأس طاولة الاجتماعات المصنوعة من خشب الماهوغني، بل اتخذ مقعدًا على أحد الجانبين مواجهًا الشاشات الكبيرة المثبتة على الجدار، فيما جلس نتنياهو على الجانب المقابل مباشرة، وظهر ديفيد برنياع، رئيس جهاز الموساد، إلى جانب مسؤولين عسكريين إسرائيليين، على الشاشة خلف رئيس الوزراء وقد اصطفّوا بصريًا خلف نتنياهو ليشكلوا صورة قائد فى زمن الحرب تحيط به قيادته.

وجلست سوزى وايلز، كبيرة موظفى البيت الأبيض، فى نهاية الطاولة، واتخذ وزير الخارجية ماركو روبيو، الذى كان يشغل أيضًا منصب مستشار الأمن القومي، مقعده المعتاد، وجلس وزير الدفاع بيت هيغسيث والجنرال دان كين، رئيس هيئة الأركان المشتركة، إلى جانب بعضهما كما جرت العادة، وانضم إليهما جون راتكليف، مدير وكالة الاستخبارات المركزية، كما حضر جاريد كوشنر، صهر الرئيس، وستيف ويتكوف، مبعوث ترامب الخاص الذى كان يجرى مفاوضات مع الإيرانيين، ليكتمل بذلك الفريق الأساسي.

جاء الاجتماع محدودًا بشكل متعمّد لتجنّب التسريبات، إذ لم يكن عدد من كبار وزراء الحكومة على علم بانعقاده، كما غاب نائب الرئيس، حيث كان جى دى فانس فى أذربيجان، وقد جرى ترتيب الاجتماع على عجل بحيث لم يتمكن من العودة فى الوقت المناسب.

وكان العرض الذى قدّمه نتنياهو خلال الساعة التالية محوريًا فى دفع الولايات المتحدة وإسرائيل نحو مسار صراع مسلّح واسع فى واحدة من أكثر مناطق العالم اضطرابًا، كما أدى إلى سلسلة من النقاشات داخل البيت الأبيض خلال الأيام والأسابيع التالية، لم تُكشف تفاصيلها سابقًا، حيث درس ترامب خياراته والمخاطر قبل أن يمنح الضوء الأخضر للانضمام إلى إسرائيل فى مهاجمة إيران.

إيران مهيأة لتغيير النظام

تستند هذه الرواية بشأن كيفية إدخال ترامب الولايات المتحدة فى الحرب إلى تقارير أعدّت لكتاب مرتقب بعنوان «تغيير النظام: داخل الرئاسة الإمبراطورية لدونالد ترامب»، وتكشف هذه الرواية كيف عكست المداولات داخل الإدارة حدس الرئيس، والانقسامات داخل دائرته المقرّبة، وطريقة إدارته للبيت الأبيض، وقد استندت إلى مقابلات موسّعة أجريت بشرط عدم الكشف عن الهوية لتناول نقاشات داخلية وقضايا حساسة.

وتُظهر هذه التقارير مدى تقارب التفكير المتشدد لدى ترامب مع مواقف نتنياهو على مدى أشهر، بدرجة فاقت ما أدركه حتى بعض كبار مستشارى الرئيس.

وقد شكّلت العلاقة الوثيقة بينهما سمة مستمرة عبر إدارتين، وكان لهذه الديناميكية، رغم ما شابها أحيانًا من توتر، دور فى إثارة انتقادات وشكوك حادة من اليسار واليمين فى السياسة الأمريكية.

كما تبيّن الرواية أنه فى نهاية المطاف، حتى الأعضاء الأكثر تشككًا فى فريق الحرب لدى ترامب، باستثناء واضح لجى دى فانس، الذى كان الأكثر معارضة داخل البيت الأبيض لخوض حرب شاملة، قد خضعوا لحدس الرئيس، بما فى ذلك ثقته الكبيرة بأن الحرب ستكون سريعة وحاسمة، وقد رفض البيت الأبيض التعليق.

قدّم نتنياهو عرضًا قويًا، فى غرفة العمليات فى ١١ شباط فبراير، مشيرًا إلى أن إيران باتت مهيأة لتغيير النظام، ومعربًا عن اعتقاده بأن مهمة مشتركة بين الولايات المتحدة وإسرائيل يمكن أن تضع حدًا للجمهورية الإسلامية.

وعرض الإسرائيليون فى مرحلة ما، على ترامب مقطع فيديو قصيرًا تضمن لقطات لمرشحين محتملين لقيادة البلاد فى حال سقوط الحكومة المتشددة، وكان من بين هؤلاء رضا بهلوي، نجل شاه إيران الأخير والمنفي، وهو معارض يقيم فى واشنطن سعى إلى تقديم نفسه كقائد علمانى يمكنه قيادة إيران نحو نظام ما بعد الحكم الديني.

وعرض نتنياهو وفريقه مجموعة من المعطيات التى قدّموها باعتبارها مؤشرات على نصر شبه مؤكد: إذ يمكن تدمير برنامج الصواريخ الباليستية الإيرانى خلال أسابيع قليلة، كما سيُضعف النظام إلى حدّ يمنعه من إغلاق مضيق هرمز، وقد قُدّرت احتمالات توجيه إيران ضربات للمصالح الأمريكية فى الدول المجاورة بأنها ضئيلة.

وأضافوا أن معلومات جهاز الموساد تشير إلى أن الاحتجاجات الشعبية داخل إيران ستتدلع مجددًا، وأن حملة قصف مكثفة، مدعومة بتحركات سرية من الجهاز الإسرائيلى لإثارة الاضطرابات والتمرد، قد تهيئ الظروف لتمكين المعارضة الإيرانية من إسقاط النظام. كما طرح الإسرائيليون احتمال عبور مقاتلين أكراد إيرانيين من العراق لفتح جبهة برية فى الشمال الغربي، ما سيزيد الضغط على قوات النظام ويسرّع انهياره.

وقدّم نتنياهو عرضه بصوت رتيب وواثق، وبدا أن عرضه لقى صدىً إيجابيًا لدى أهم شخص فى الغرفة، وهو الرئيس الأمريكي.

وقال ترامب لرئيس الوزراء: «يبدو الأمر جيدًا بالنسبة لي»، وقد فهم نتنياهو من ذلك أنه إشارة إلى ضوء أخضر محتمل لعملية مشتركة بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

ولم يكن نتنياهو الوحيد الذى خرج من الاجتماع بانطباع أن ترمب قد حسم قراره تقريبًا، فقد لاحظ مستشارو الرئيس أنه تأثر بشدة بالوعود المتعلقة بما يمكن أن تنفذه الأجهزة العسكرية والاستخباراتية الإسرائيلية، كما كان الحال عندما تحدث الرجلان قبل الحرب التى استمرت ١٢ يومًا مع إيران فى يونيو.

وحاول نتنياهو فى وقت سابق أن يركّز انتباه الأمريكيين المجتمعين فى غرفة مجلس الوزراء على التهديد الوجودى الذى يمثله المرشد الأعلى الإيرانى البالغ من العمر ٨٦ عامًا، آية الله على خامنئي.

أسئلة ومخاطر تطرح على نتنياهو

وعندما طرح آخرون فى الغرفة أسئلة على رئيس الوزراء بشأن المخاطر المحتملة للعملية، أقرّ بهذه المخاطر، لكنه شدّد على نقطة مركزية: من وجهة نظره، فإن مخاطر عدم التحرك أكبر من مخاطر التحرك، وجادل بأن كلفة العمل ستزداد فقط إذا تأخروا فى الضربة ومنحوا إيران مزيدًا من الوقت لتسريع إنتاج الصواريخ وبناء درع حصانة حول برنامجها النووي.

وقد أدرك الجميع فى الغرفة أن إيران قادرة على تعزيز مخزونها من الصواريخ والطائرات المسيّرة بتكلفة أقل بكثير وبسرعة أكبر مما تستطيع الولايات المتحدة به إنتاج وتزويد أنظمة الاعتراض الأكثر تكلفة لحماية مصالحها وحلفائها فى المنطقة.

وأدّت عروض نتنياهو، وردّ ترمب الإيجابى عليها، إلى تكليف عاجل لمجتمع الاستخبارات الأمريكي. فقد عمل المحللون طوال الليل لتقييم مدى واقعية ما عرضه الفريق الإسرائيلى على الرئيس.

«هزلى .. هذا هراء»

فى اليوم التالي، ١٢ فبراير، عُرضت نتائج التحليل الاستخباراتى الأمريكى فى اجتماع آخر خُصّص للمسؤولين الأمريكيين فقط فى غرفة العمليات، وقبل وصول ترامب، قدّم مسؤولان استخباراتيان كبيران إحاطة للدائرة المقرّبة من الرئيس.

كان المسؤولون الاستخباراتيون يمتلكون خبرة عميقة فى قدرات الجيش الأمريكي، وكانوا يعرفون النظام الإيرانى ولاعبيه عن كثب، وقد قسّموا عرض نتنياهو إلى أربعة أجزاء:

أولا، قطع الرأس .. أى اغتيال المرشد الأعلى.

ثانيًا، شلّ قدرة إيران على إسقاط قوتها وتهديد جيرانها.

ثالثًا، اندلاع انتفاضة شعبية داخل إيران.

ورابعًا، تغيير النظام، مع تنصيب قائد علمانى لحكم البلاد.

وقد قدّر المسؤولون الأمريكيون أن الهدفين الأول والثانى قابلان للتحقيق باستخدام القدرات الاستخباراتية والعسكرية الأمريكية، أما الجزآن الثالث والرابع من طرح نتنياهو، اللذان تضمّنا احتمال قيام الأكراد بغزو برى لإيران، فقد اعتُبرا بعيدين عن الواقع.

وعندما انضم ترمب إلى الاجتماع، قدّم السيد راتكليف الإحاطة له بشأن التقييم، واستخدم مدير وكالة الاستخبارات المركزية كلمة واحدة لوصف سيناريوهات تغيير النظام التى طرحها رئيس الوزراء الإسرائيلي: «هزلية».

وعند هذه النقطة، تدخّل روبيو قائلًا: «بعبارة أخرى، هذا هراء»

وأضاف راتكليف أن تغيير النظام قد يحدث نظرًا لعدم القدرة على التنبؤ بمسار أى صراع، لكنه لا ينبغى اعتباره هدفًا قابلًا للتحقيق.

وتدخّل عدة مسؤولين آخرين، بينهم نائب الرئيس فانس، الذى عاد لتوه من أذربيجان، وأعرب أيضًا عن شكوك قوية بشأن احتمالات تغيير النظام.

ثم توجّه الرئيس إلى الجنرال كين قائلًا: «جنرال، ما رأيك؟»

فأجاب الجنرال كين: «سيدي، هذا – فى خبرتى – إجراء اعتيادى لدى الإسرائيليين. فهم يبالغون فى عرض الأمور، وخططهم ليست دائمًا متطورة جيدًا، إنهم يعلمون أنهم بحاجة إلينا، ولذلك يضغطون بقوة».

وقيّم ترمب هذا التقدير سريعًا، وقال إن تغيير النظام سيكون «مشكلتهم»، ولم يكن واضحًا ما إذا كان يقصد الإسرائيليين أم الشعب الإيراني، لكن الخلاصة كانت أن قراره بشأن الذهاب إلى الحرب ضد إيران لن يعتمد على إمكانية تحقيق الجزآين الثالث والرابع من عرض نتنياهو.

وبدا أن ترمب لا يزال مهتمًا جدًا بتحقيق الجزأين الأول والثاني: اغتيال المرشد الأعلى وكبار قادة إيران، وتفكيك الجيش الإيراني.

وكان الجنرال كين، الذى كان ترامب يحب أن يشير إليه باسم «ريزن كين»، قد أثار إعجاب الرئيس قبل سنوات عندما أخبره أن تنظيم الدولة يمكن هزيمته بسرعة أكبر بكثير مما كان متوقعًا، وكافأه ترامب على تلك الثقة بترقيته، وهو طيار مقاتل سابق فى سلاح الجو، ليصبح مستشاره العسكرى الأعلى، ولم يكن الجنرال كين مواليًا سياسيًا، وكان لديه مخاوف جدية بشأن حرب مع إيران، لكنه كان حذرًا للغاية فى طريقة عرض آرائه على الرئيس.

وخلال الأيام التالية، بينما كان فريق صغير من المستشارين الذين أطلعوا على الخطط يتداولون، عرض الجنرال كين على ترامب وآخرين تقييمًا عسكريًا مقلقًا يفيد بأن حملة كبرى ضد إيران ستستنزف بشكل كبير مخزونات الأسلحة الأمريكية، بما فى ذلك صواريخ الاعتراض التى تضرر مخزونها بالفعل بعد سنوات من دعم أوكرانيا وإسرائيل، ولم يرَ الجنرال كين مسارًا واضحًا لإعادة ملء هذه المخزونات بسرعة.

كما أشار إلى الصعوبة الهائلة فى تأمين مضيق هرمز، وإلى مخاطر قيام إيران بإغلاقه، وكان ترامب قد استبعد هذا الاحتمال على أساس أن النظام الإيرانى سيستسلم قبل الوصول إلى تلك المرحلة، ويبدو أن الرئيس كان يعتقد أن الحرب ستكون سريعة جدًا، وهو انطباع تعزّز بسبب رد الفعل المحدود على القصف الأمريكى للمنشآت النووية الإيرانية فى يونيو.

وقد عكس دور الجنرال كين فى الفترة التى سبقت الحرب توترًا تقليديًا بين المشورة العسكرية وصنع القرار الرئاسي. فقد كان حريصًا باستمرار على عدم اتخاذ موقف مباشر، مكررًا أن دوره لا يتمثل فى إخبار الرئيس بما يجب فعله، بل فى عرض الخيارات مع المخاطر المحتملة والنتائج من الدرجة الثانية والثالثة، إلى درجة أنه بدا لبعض الحاضرين وكأنه يجادل فى جميع جوانب القضية فى آن واحد.

وكان يطرح باستمرار السؤال: «وماذا بعد ذلك؟» لكن ترامب كان غالبًا ما يسمع فقط ما يريد سماعه.

وقد اختلف الجنرال كين فى كل شيء تقريبًا عن رئيس سابق لهيئة الأركان المشتركة، الجنرال مارك ميلي، الذى كان قد جادل ترامب بشدة خلال ولايته الأولى، وكان يرى أن دوره يتمثل فى منع الرئيس من اتخاذ قرارات خطيرة أو متهورة.

وأشار أحد المطلعين على حواراتهما إلى أن ترامب كان يميل إلى الخلط بين النصائح التكتيكية التى يقدمها الجنرال كين والإرشاد الاستراتيجي، وكان ذلك يعنى عمليًا أن الجنرال قد يحذّر فى جملة واحدة من صعوبات أحد جوانب العملية، ثم يذكر فى الجملة التالية أن الولايات المتحدة تمتلك إمدادًا شبه غير محدود من القنابل الدقيقة منخفضة التكلفة، وأن بإمكانها ضرب إيران لأسابيع بمجرد تحقيق التفوق الجوي.

وبالنسبة لرئيس هيئة الأركان، كانت هذه ملاحظات منفصلة، لكن ترامب بدا وكأنه يعتقد أن الثانية تُلغى الأولى.

وخلال المداولات، لم يبلغ رئيس الهيئة الرئيس بشكل مباشر فى أى لحظة بأن الحرب مع إيران فكرة سيئة للغاية – رغم أن بعض زملاء الجنرال كين كانوا يعتقدون أن هذا هو بالضبط ما كان يراه.

ترامب الصقوري

ورغم أن كثيرًا من مستشارى الرئيس كانوا لا يثقون بنتنياهو، فإن رؤية رئيس الوزراء للوضع كانت أقرب بكثير إلى رأى ترامب مما كان أنصار عدم التدخل داخل فريق ترامب أو فى حركة «أمريكا أولًا» يرغبون فى الاعتراف به، وقد كان ذلك صحيحًا لسنوات عديدة.

ومن بين جميع تحديات السياسة الخارجية التى واجهها ترامب خلال فترتى رئاسته، برزت إيران كحالة مختلفة، فقد اعتبرها خصمًا خطيرًا بشكل فريد، وكان مستعدًا لتحمّل مخاطر كبيرة لإعاقة قدرة النظام على خوض الحروب أو امتلاك سلاح نووي، كما تلاقت أطروحة نتنياهو مع رغبة ترامب فى تفكيك النظام الدينى الإيرانى الذى استولى على السلطة عام ١٩٧٩، عندما كان ترامب فى الثانية والثلاثين من عمره، والذى ظل شوكة فى خاصرة الولايات المتحدة منذ ذلك الحين.

وكان بإمكانه الآن أن يصبح أول رئيس منذ استيلاء القيادة الدينية على الحكم قبل ٤٧ عامًا ينجح فى إحداث تغيير فى النظام فى إيران، وكان هناك دافع إضافي، نادرًا ما يُذكر لكنه حاضر دائمًا فى الخلفية، وهو أن إيران كانت قد خططت لاغتيال ترامب انتقامًا لاغتيال الجنرال قاسم سليمانى فى يناير ٢٠٢٠، الذى كان يُنظر إليه فى الولايات المتحدة باعتباره قوة دافعة وراء حملة إيرانية للإرهاب الدولي.

ومع عودته إلى المنصب لولاية ثانية، ازداد ثقة ترامب بقدرات الجيش الأمريكي، وقد تعزّزت هذه الثقة بشكل خاص بعد العملية الجريئة التى نفذتها قوات خاصة للقبض على الزعيم الفنزويلى نيكولاس مادورو من مقره فى ٣ يناير، ولم تُفقد أى أرواح أمريكية فى تلك العملية، وهو ما اعتبره الرئيس دليلًا إضافيًا على التفوق الفريد للقوات الأمريكية.

هيغسيث أبرز المؤيدين

داخل مجلس الوزراء، كان هيغسيث أبرز المؤيدين لحملة عسكرية ضد إيران.

أما روبيو، فقد أشار لزملائه إلى أنه أكثر ترددًا، إذ لم يكن يعتقد أن الإيرانيين سيوافقون على اتفاق تفاوضي، لكنه فضّل مواصلة سياسة «الضغط الأقصى» بدلًا من بدء حرب شاملة، ومع ذلك، لم يحاول إثناء ترامب عن العملية، وبعد اندلاع الحرب، قدّم مبررات الإدارة لها بقناعة كاملة.

وكانت لدى السيدة وايلز مخاوف بشأن ما قد ينطوى عليه صراع جديد فى الخارج، لكنها لم تمل إلى التدخل بقوة فى القضايا العسكرية خلالَ الاجتماعات الكبرى؛ بل كانت تشجّع المستشارين على عرض آرائهم ومخاوفهم على الرئيس فى تلك الاجتماعات.

وقد مارست وايلز نفوذًا فى قضايا أخرى كثيرة، لكنها فى الغرفة مع ترامب والجنرالات كانت تفضّل التراجع، وقال مقرّبون منها إنها لم تكن ترى أن من دورها طرح مخاوفها بشأن قرار عسكرى أمام الآخرين، وكانت تعتقد أن خبرة مستشارين مثل الجنرال كين و راتكليف و روبيو أكثر أهمية أن يسمعها الرئيس.

ومع ذلك، فقد أعربت السيدة وايلز لزملائها عن قلقها من أن تتجرّ الولايات المتحدة إلى حرب أخرى فى الشرق الأوسط. فالهجوم على إيران كان ينطوى على احتمال ارتفاع كبير فى أسعار الوقود قبل انتخابات التجديد النصفي، وهو ما قد يحدد ما إذا كانت السنتان الأخيرتان من الولاية الثانية لترامب ستكونان سنوات إنجاز أم مواجهة مع تحقيقات من الديمقراطيين فى مجلس النواب. لكن فى النهاية، أيدت السيدة وايلز العملية.

فانس المتشكك

ولم يكن هناك فى الدائرة المقرّبة من ترامب من كان أكثر قلقًا من احتمال الحرب مع إيران، أو بذل جهدًا أكبر لمحاولة منعها، من نائب الرئيس.

وقد بنى فانس مسيرته السياسية على معارضة هذا النوع تحديدًا من المغامرات العسكرية التى كانت قيد الدراسة الجدية، وكان قد وصف الحرب مع إيران بأنها «إهدار هائل للموارد» و«باهظة التكلفة بشكل كبير».

ومع ذلك، لم يكن من دعاة السلام فى كل الحالات، ففى يناير، عندما حذّر ترامب علنًا إيران من قتل المتظاهرين وتعهد بأن المساعدة فى الطريق، شجّع فانس الرئيس فى السر على فرض خطه الأحمر، لكنه كان يدفع باتجاه ضربة محدودة عقابية، أقرب إلى نموذج الضربة الصاروخية التى أمر بها ترامب ضد سوريا عام ٢٠١٧ بسبب استخدام الأسلحة الكيميائية ضد المدنيين.

ورأى نائب الرئيس أن حربًا لتغيير النظام فى إيران ستكون كارثة، وكان يفضّل عدم تنفيذ أى ضربات على الإطلاق. لكنه، إدراكًا منه أن ترامب من المرجح أن يتدخل بشكل ما، حاول توجيه القرار نحو عمل محدود، ولاحقًا، عندما بدا أن الرئيس عازم على حملة واسعة النطاق، جادل بأنه ينبغى تنفيذها بقوة ساحقة، على أمل تحقيق الأهداف بسرعة.

وحذّر فانس، أمام زملائه، من أن الحرب ضد إيران قد تؤدى إلى فوضى إقليمية وأعداد لا تُحصى من الضحايا، كما قد تُفكك التحالف السياسى لترامب، وقد يُنظر إليها على أنها خيانة من قبل كثير من الناخبين الذين صدّقوا وعد عدم خوض حروب جديدة.

وأثار نائب الرئيس مخاوف أخرى أيضًا، فبحكم منصبه، كان مطلعًا على حجم مشكلة الذخائر لدى الولايات المتحدة، وقد تؤدى حرب ضد نظام يتمتع بإرادة بقاء قوية إلى ترك الولايات المتحدة فى وضع أسوأ بكثير لخوض صراعات لسنوات.

وقال نائب الرئيس لمقرّبين منه إن أى قدر من التحليل العسكرى لا يمكنه التنبؤ بدقة بما ستفعله إيران ردًا عندما يكون بقاء النظام على المحك، فالحرب قد تنحرف بسهولة فى اتجاهات غير متوقعة. كما رأى أن فرص بناء إيران سلمية بعد ذلك تبدو ضئيلة.

وفوق كل ذلك، كان هناك ربما الخطر الأكبر: تمتلك إيران أفضلية فى مضيق هرمز، وإذا تم إغلاق هذا الممر المائى الضيق الذى تمر عبره كميات هائلة من النفط والغاز، فإن العواقب داخل الولايات المتحدة ستكون شديدة، بدءًا بارتفاع أسعار البنزين.

تاكر كارلسون: ستدمر رئاسة ترامب

وقد زار المعلق تاكر كارلسون، الذى برز كأحد أبرز المشككين فى التدخل العسكرى داخل اليمين، المكتب البيضاوى عدة مرات خلال العام السابق لتحذير ترامب من أن الحرب مع إيران ستدمّر رئاسته.

وحاول ترامب قبل أسبوعين من اندلاع الحرب، طمأنته عبر الهاتف قائلًا: «أعلم أنك قلق، لكن كل شيء سيكون على ما يرام». فسأله كارلسون كيف يعرف ذلك، فأجاب: «لأن الأمور دائمًا كذلك».

وفى الأيام الأخيرة من فبراير، ناقش الأمريكيون والإسرائيليون معلومة استخباراتية جديدة من شأنها تسريع جدولهم الزمنى بشكل كبير، إذ كان المرشد الأعلى سيجتمع فوق الأرض مع كبار مسؤولى النظام، فى وضح النهار، وفى موقع مكشوف أمام هجوم جوي. وكانت فرصة عابرة لضرب قلب القيادة الإيرانية، من النوع الذى قد لا يتكرر.

ومنح ترامب إيران فرصة أخرى للتوصل إلى اتفاق يمنعها من امتلاك سلاح نووي، كما أتاحت الجهود الدبلوماسية للولايات المتحدة وقتًا إضافيًا لنقل أصول عسكرية إلى الشرق الأوسط.

وقال عدد من مستشاريه إن الرئيس كان قد حسم قراره فعليًا قبل أسابيع، لكنه لم يكن قد حدّد التوقيت بعد، وهنا حثّه نتنياهو على التحرك بسرعة.

وفى الأسبوع نفسه، اتصل كوشنر ويتكوف من جنيف بعد أحدث جولة محادثات مع مسؤولين إيرانيين بعد ان اختبرا خلال ثلاث جولات من المفاوضات فى عُمان وسويسرا، مدى استعداد إيران لإبرام اتفاق، وفى إحدى المراحل، عرضا على الإيرانيين وقودًا نوويًا مجانيًا طوال عمر برنامجهم – لاختبار ما إذا كان إصرار طهران على التخصيب يتعلق فعلا بالطاقة المدنية أم بالحفاظ على القدرة على صنع قنبلة.

ورفض الإيرانيون العرض، واعتبروه اعتداءً على كرامتهم.

وعرض كوشنر ويتكوف الصورة أمام الرئيس، قائلين إن التوصل إلى اتفاق ممكن على الأرجح، لكنه سيستغرق أشهرًا، وأضاف كوشنر أنه إذا كان الرئيس يسأل عمّا إذا كان بإمكانهما النظر فى عينيه والقول إنهما قادران على حل المشكلة، فإن الأمر سيتطلب جهدًا كبيرًا، لأن الإيرانيين «يلعبون».

«أعتقد أننا بحاجة إلى القيام بذلك»

وفى يوم الخميس ٢٦ فبراير، نحو الساعة الخامسة مساءً، بدأ اجتماع أخير فى غرفة العمليات، وبحلول ذلك الوقت، كانت مواقف الجميع واضحة، فقد نوقش كل شيء فى الاجتماعات السابقة، وكان كل شخص يعرف موقف الآخر، واستمر النقاش نحو ساعة ونصف.

ومنح ترمب فى مكانه المعتاد على رأس الطاولة، وعن يمينه جلس نائب الرئيس؛ وإلى جانب فانس كانت السيدة وايلز، ثم راتكليف، ثم المستشار القانونى للبيت الأبيض ديفيد وارينغتون، ثم مدير الاتصالات فى البيت الأبيض ستيفن تشيونغ، وعلى الجانب المقابل من السيد تشيونغ جلست السكرتيرة الصحفية للبيت الأبيض كارولاين ليفيت؛ وعن يمينها كان الجنرال كين، ثم هيغسيث وروبيو.

وكانت مجموعة التخطيط للحرب محدودة للغاية إلى درجة استبعاد مسؤولين رئيسيين كانا سيحتاجان إلى إدارة أكبر اضطراب فى الإمدادات فى تاريخ سوق النفط العالمية، وهما وزير الخزانة سكوت بيسنت ووزير الطاقة كريس رايت، وكذلك مديرة الاستخبارات الوطنية تولسى غابارد.

وافتتح الرئيس الاجتماع قائلاً: «حسنًا، ماذا لدينا؟».

استعرض هيغسيث وكين تسلسل تنفيذ الهجمات، ثم قال ترامب إنه يريد أن يدور الحديث حول الطاولة لسماع آراء الجميع.

وتحدث فانس، الذى كان اعتراضه على الفكرة الأساسية معروفًا، مخاطبًا الرئيس: أنت تعلم أننى أعتقد أن هذه فكرة سيئة، لكن إذا أردت تنفيذها فسأدعمك.

وقالت السيدة وايلز لترامب إنه إذا كان يرى ضرورة المضى قدمًا من أجل الأمن القومى الأمريكي، فعليه أن يفعل ذلك.

أما راتكليف فلم يبد رأيًا بشأن المضى قدمًا، لكنه تحدّث عن المعلومات الاستخباراتية الجديدة اللافتة التى تشير إلى أن القيادة الإيرانية على وشك الاجتماع فى مجمّع المرشد الأعلى فى طهران.

وقال مدير وكالة الاستخبارات المركزية للرئيس إن تغيير النظام ممكن، اعتمادًا على كيفية تعريف المصطلح، مضيفًا: «إذا كان المقصود مجرد قتل المرشد الأعلى، فربما نستطيع فعل ذلك».

وعندما طُلب رأى وارينغتون، المستشار القانونى للبيت الأبيض، قال إن هذا الخيار مسموح به قانونيًا وفقًا للطريقة التى صاغ بها المسؤولون الأمريكيون الخطة وقدّموها للرئيس، ولم يقدّم رأيًا شخصيًا، لكن عندما ضغط عليه الرئيس لإبداء رأي، قال إنه بصفته محاربًا قديمًا فى مشاة البحرية كان يعرف جنديًا أمريكيًا قُتل على يد إيران قبل سنوات، وإن هذه القضية لا تزال شخصية للغاية بالنسبة له، وأضاف أنه إذا كانت إسرائيل تعتزم المضى قدمًا على أى حال، فينبغى للولايات المتحدة أن تفعل الشيء نفسه.

وعرض تشيونغ التداعيات المحتملة على صعيد الرأى العام: فقد خاض ترامب حملته الانتخابية على أساس معارضة الحروب الجديدة، ولم يصوّت الناس من أجل صراع خارجي، كما أن الخطط تتعارض مع كل ما قالته الإدارة بعد حملة القصف ضد إيران فى يونيو. وتساءل: كيف يمكن تبرير ثمانية أشهر من التأكيد على أن المنشآت النووية الإيرانية قد دُمّرت بالكامل؟ ولم يعطِ تشيونغ موافقة أو رفضًا، لكنه قال إن أى قرار يتخذه السيد ترمب سيكون القرار الصحيح.

وقالت السيدة ليفيت للرئيس إن القرار قراره، وإن فريق الإعلام سيتولى إدارته بأفضل ما يستطيع.

واتخذ هيغسيث موقفًا مباشرًا ومحدودًا: قال إنهم سيضطرون إلى التعامل مع الإيرانيين عاجلًا أم آجلًا، وبالتالى فمن الأفضل القيام بذلك الآن، وقدّم تقييمات تقنية، موضحًا أنهم قادرون على تنفيذ الحملة خلال إطار زمنى معين وبمستوى محدد من القوات.

وكان الجنرال كين متحفظًا، إذ عرض المخاطر وما ستعنيه الحملة من استنزاف للذخائر، ولم يبدِ رأيًا؛ فموقفه كان أن الجيش سينفّذ إذا أصدر ترامب الأمر، وقد قدّم كل من القائدين العسكريين الأعلى للرئيس تصورًا لكيفية سير الحملة وقدرة الولايات المتحدة على إضعاف القدرات العسكرية الإيرانية.

وعندما جاء دوره، قدّم روبيو موقفًا أكثر وضوحًا، فقال للرئيس: إذا كان هدفنا تغيير النظام أو إشعال انتفاضة، فلا ينبغى أن نفعل ذلك، أما إذا كان الهدف تدمير برنامج الصواريخ الإيراني، فهذا هدف يمكننا تحقيقه.

وقد ترك الجميع المجال لحدس الرئيس، فقد رأوه يتخذ قرارات جريئة، ويخاطر بمخاطر هائلة، ثم يخرج منتصرًا بطريقة ما، ولم يكن أحد ليقف فى طريقه الآن.

وقال الرئيس للحاضرين: «أعتقد أننا بحاجة إلى القيام بذلك»، وأضاف أنه يجب التأكد من أن إيران لا تستطيع امتلاك سلاح نووي، وأنه يجب ضمان ألا تتمكن من إطلاق الصواريخ على إسرائيل أو فى أنحاء المنطقة.

وأبلغ الجنرال كين ترامب أن لديه بعض الوقت، وأنه لا يحتاج إلى إعطاء الضوء الأخضر حتى الساعة الرابعة مساءً من اليوم التالي.

وفى اليوم التالى بعد الظهر، وعلى متن الطائرة الرئاسية، وقبل ٢٢ دقيقة من الموعد الذى حدده الجنرال كين، أرسل ترامب الأمر التالي: «تمت الموافقة على عملية "الغضب الملحمي". لا إلغاء. حظًا موفقًا».

نيويورك تايمز